المطران روبير ربّاط

بنعمةِ الله

مطران الرّوم الملكيّينَ الكاثوليك في أستراليا ونيوزيلندا

إلى الإكليروس، زملائي خَدَمِ المذبح

ورهبان وراهبات ومؤمني أبرشيتِنا المباركة

رسالةٌ رعويَّةٌ بمناسبةِ عيد الميلادِ الإلهيّ، 2016

إخوتي وأخواتي في المسيحِ الأعزَّاء،

اليوم، نعيشُ في عصرِ التكنولوجيا البصريَّة، حيثُ أَصبحَ المرئيُّ أَهمَّ منَ المسموع. في كثيرٍ منَ الأَحيان، تَضيعُ الرّسالةُ الموجَّهةُ بينَ كميَّةِ الصُّوَرِ المعروضةِ والمعلوماتِ البصريَّةِ المتضاربة. لنَنظرْ إلى الحملاتِ الإنتخابيَّةِ لكِلا المرشَّحَين في الإنتخاباتِ الرئاسيَّةِ الأَخيرةِ في الولاياتِ المتَّحدة. خلالَ الفترةِ السَّابقةِ للإقتراع، تمَّ الدَّمْجُ بينَ الصُّورةِ والرّسالة إلى حدٍّ أَظهَرَ الحملاتِ الإنتخابيَّةَ وكأَنَّها حربٌ منَ الشِّعاراتِ الإعلاميَّةِ المتكرِّرَةِ على مدارِ السَّاعة، ليلاً ونهارًا. وهذا الأمر، لا يُقتَصَر فقط على الولاياتِ المتَّحدة.

في معظمِ التَّاريخِ البشريّ، كان، لغالبيَّةِ النَّاس، إختبارُهم في ما يمكنُ أنْ يُسَمَّى فنًّا وتَحفيزًا بَصَريًّا، وكان ذلكَ مُقتَصَرًا على ما يَرونَه في المناسباتِ الرَّسميَّةِ أو في المباني الرسميَّة، في المعبدِ أو الكنيسة. اليوم، تمَّتْ إضافةُ مجموعةٍ واسعةٍ منَ التطوُّراتِ في مجالِ الإتِّصالاتِ والدَّعائم التربويَّةِ والأَجهزةِ الحياتيَّةِ إلى وسائلِ الإعلامِ الإلكترونيَّةِ (التّلفازِ والسينما). فضلاً عنِ الإعلامِ المرئيّ الموجودِ في كلّ مكان، هناك وَفْرَةٌ منَ الموادِ المطبوعةِ كالصُّحفِ والمجلاَّتِ المليئةِ أيضًا بالصُّور.

في كثيرٍ منَ الأحيان، يُصبِحُ إدمانُ مجتمعِنا المتعلّقُ بالصُّورِ تَطفُّلاً. مثالٌ على ذلك، شارعٌ رئيسيٌّ لضاحيَةٍ جديدةٍ قريبةٍ منْ موقعِ أبرشيَّتِنا يَبلغُ طولُه كيلومترًا واحدًا. في هذا الشَّارع، يوجدُ 73 إشارةِ مرورٍ وإشارات خاصَّة بالمشاةِ على كِلا الطَّرفَينِ منَ الطَّريق. في الإجمال، يَصِلُ عددُهم إلى 146 إشارة. لم تعدْ تلكَ الإشارات إرشادات، بل تلوُّثٌ بصريّ.

تُثيرُ فينا كلُّ هذه الْمُحفِّزاتِ رغبةً بالإستجابة، رغمَ أَنَّنا، في بعضِ الأَحيان، قد لا نقبلُها. كم نتمنَّى لو أَنَّنا نتمكَّنُ منَ الإبتعادِ عن هذا العالمِ الْمُشبَعِ بالصُّور. لكن، غالبًا ما قد ننسى أنَّه مقابل هذا البحرِ الواسعِ منَ البصريَّةِ المعاصرةِ الْمُرافَقةِ بالأَصواتِ المزعجة، قد نجدُ صوَرًا تُحدِّثُ قلوبَنا بهدوءٍ عنِ الأشياءِ المهمَّةِ والأَساسيَّةِ لمعنى الوجودِ الإنساني.

على عكسِ العديدِ منَ الصُّوَرِ الدّينيَّةِ الغربيَّة، إنَّ الإيقونوغرافيَّة، أيّ الفنَّ المقدّسَ الخاصَّ بالكنيسةِ البيزنطيَّة، هو فنٌّ تعليميّ (διδακτκος). لا تَصبو الإيقوناتُ إلى أنْ تكونَ بسيطةً جميلةً أو إلى أنْ تمنحنَا شعورًا جيّدًا. حتى وإنْ لم يكنِ الشّخصُ مثقَّفًا دينيًّا قد يستطيعُ أنْ يَستَخلِصَ منها بعضَ الحقائقِ الأساسيَّةِ عنِ الإيمانِ المسيحي. هناك قولٌ مأثورٌ في اللغةِ اللاتينيَّةِ يعودُ إلى القرنِ الخامس ميلاديّ يُشيرُ إلى أنَّ طريقةَ صلاتِنا وتكريمِنا تُظهِرُ ما نؤمنُ به. في الشَّرقِ البيزنطي، نستطيعُ إضافةَ القولِ بأنَّ كتابتَنا للإيقونةِ تُظهِرُ ما نؤمنُ به.

في هذا الوقتِ منَ السَّنة، هناكَ رموزٌ موسميَّةٌ تدعونا إلى التركيزِ على السرِّ الذي نحتفلُ به وعلينا إدراكُه. إنَّ إيقونةَ الميلادِ الإلهي، رغم تعدُّدِ الْمَشاهدِ فيها، على مثالِ الإيقونةِ السلافيَّة، هي بسيطةٌ وسلاميَّة. لنفكّرْ قليلاً بصورةِ العذراءِ والدةِ الإله. إنَّها لا تركعُ أمامَ المولودِ الجديدِ كما في بعضِ الإيقوناتِ الإيطاليَّة، بل تَستلقي بجانبِ المذود. بكمالِها ورقَّتِها، تَستريحُ بعد الولادةِ العجائبيَّة. تستريحُ على صخرةٍ صغيرةٍ مذكّرةً بأنَّها "الحجرُ الذي انفصلَ لا بقوَّةِ اليدّين" (دا2: 34).

بالنسبةِ لنا، ليسَ المذودُ (لو2: 7) مجرَّدَ صندوقٍ يحتوي على عَلَفِ الحيوانات، بل هو، في كثيرٍ منَ الأَحيان، يَظهرُ على شكلِ تابوتٍ يحتوي على طفلٍ كفَّنَتْه أمُّه. يأخذُنا هذا إلى ما وراءِ المشهدِ التصويريّ لنتذكَّرَ وحدةَ سرِّ التجسّد، إذ أنَّ حياةَ المسيحِ ككلّ هي عملٌ خلاصيٌّ متكامل. في الإيقوناتِ القانونيَّةِ لميلادِ المسيح، يُصوَّرُ القدّيسُ يوسف، الخطيب، بعيدًا عن والدةِ الإلهِ وعنِ المولودِ الجديد، يسوع. يُذَكِّرُنا هذا الأمرُ بأنَّ يوسفَ ليسَ والدَ الطّفلِ بل وليُّ أمرِه.

في حدثِ البشارة، يدعو رئيسُ الملائكة، جبرائيل، والدةَ الإلهِ إلى أنْ تُسَمّيَ الطّفلَ يسوع أيّ مخلّص. إنَّ ميلادَه والسَّنواتِ الخفيَّةَ ورسالتَه العلنيَّةَ وآلامَه وموتَه وقيامتَه ليسوا منعزلينَ أو أحداثًا منفصلة، بل يشكّلونَ معًا عملَ الخلاص. كما يقولُ القدّيسُ بطرس إلى السنهدرين اليهودي: "لا خلاصَ بأحدٍ غَيرِه، لأنَّه ما مِن اسمٍ آخَرَ تحتَ السَّماءِ أُطلِقَ على أحدِ النَّاسِ ننالُ بهِ الخلاص" (أع4: 12).

في العهدِ الجديد، نجدُ نصَّين ذاتَ صلةٍ خاصَّة، فيهما نرى يسوعَ المسيح على أنَّه الإيقونةُ الحقيقيَّة. في إنجيلِ القدّيسِ يوحنَّا، يقولُ يسوع: "مَنْ رآني فقد رأى الآب" (يو14: 9). وفي الرّسالةِ إلى العبرانيّين، يقولُ الكاتبُ المقدَّسُ إنَّ يسوعَ هو "صورةُ جوهرِ" (χαρακτήρ) الآب (عب1: 3).

أنتجَ إيقونوغرافيُّ العصورِ الوسطى الروسي، القدّيسُ أندريه روبليف (1428–1360م)، الإيقونةَ الشَّهيرةَ والأكثرَ تكريمًا للثَّالوثِ الأقدس، التي تُبرِزُ "الملائكةَ" الثلاثةَ عند بلّوطِ مَمْرا على ما جاءَ في العهدِ القديم (تك18: 1). في زيارةِ الكائناتِ السَّماويَّةِ الثَّلاثة، مُنِحَ إبراهيمُ مشاهدةَ الثَّالوثِ الأقدسِ الْمُحجَب. أمَّا موسى فقد سُمِحَ له مشاهدةَ لمحةٍ عنِ المجد (δόξα) حينَ مرَّ الله (خر33: 22). في يسوعَ المسيح، باتَ باستطاعتِنا أنْ نعرِفَ اللهَ بطريقةٍ لم تكنْ ممكنةً لأيٍّ منَ الأنبياءِ أو آباءِ العهدِ القديم. نحن نعرفه كعمَّانوئيل، الله الذي هو معنا.

يروي القدّيسُ يوحنَّا أنَّ بعضَ اليونانيّينَ المرتَدِّين، اليهود الهلنستيّون، جاؤوا إلى أورشليمَ منْ أجلِ عيدِ الفصح. قصدوا إلى فيليبس، ربَّما بسببِ اسمِه اليوناني. كانَ طلبُهم بسيطًا، "نريدُ أنْ نرى يسوعَ المسيح" (يو12: 21). لم يستطيعوا معرفةَ النتائجِ الكاملةِ لطلبِهم... كما نحن غالبًا نتجاهلُ متطلّباتِ التِّلمذة. في الآياتِ التَّاليةِ لهذا الطَّلَب، يَستعيرُ يسوعُ صورةَ القمحِ الذي يَقعُ على الأرضِ ويموتُ منْ أجلِ إنتاجِ الكثيرِ منَ الحبوبِ مُشيرًا بذلكَ إلى متَطلّباتِ التِّلمذة.

إنْ نظرْنا حولَنا، وإنْ اخترقْنا كلَّ الإنحرافاتِ البصريَّةِ التي تحوِّطنا، سوف نجدُ العديدَ منَ الأشخاصِ في مجتمعاتِنا يَرغبون، على مثالِ اليونانيّين المرتدّين، في رؤيةِ يسوعَ المسيح.

خلالَ حقباتٍ تاريخيَّةٍ عديدة، دَرجتِ العادةُ أنْ تُضغَطَ نسخةٌ منْ إيقونةٍ مشهورةٍ فوقَ الإيقونةِ الأَصليَّةِ لعلَّه يَدخلُ، عن طريقِ التَّناضح، شيءٌ منْ روحِ الإيقونةِ الأصليَّةِ إلى مسامِ النَّسخة. لذا، عبثًا يكونُ تكريمُنا لإيقونةٍ ما إنْ لم نَسمحْ لرسالتِها التعليميَّةِ أنْ تَدخلَ إلى قلوبِنا وعقولِنا فتُعيدَ إصلاحَ نفوسِنا.

عندما نقفُ أمامَ إيقونةِ الثَّالوثِ الأقدس، أو عندما نُلقي نظرةً إلى إيقونةِ ميلادِ المسيح، هل نرى فقط عمَلاً فنيًّا، أو أنَّنا نَسمحُ لأَنفسِنا أنْ ندخلَ في السرِّ الإلهيِّ الْمُوحى عن يدِ الإيقونوغرافيّ؟ في ثالوثِ روبليف، نلتقي مَنْ قالَ عنه القدّيسُ يوحنَّا "الله محبَّة" (1يو4: 8). بينما في إيقونةِ ميلادِ المسيح، فنرى الكشفَ الإلهيَّ الحقيقيَّ والكاملَ حيثُ الحبُّ، الكلمةُ المتجسِّد، يسوعُ المسيح، أتى وسكنَ فيما بيننا.

بعد الظُّهورِ الإلهيِّ على جبلِ سيناء، عادَ موسى لبني إسرائيلَ حاجبًا وجهَه إذ أنَّه كانَ يَعكسُ المجدَ الإلهي. ولكن، ماذا بالنسبةِ لنا؟ في عيدِ الميلاد، هل نكرِّمُ إيقونةَ الميلادِ ونُدخِلُ في قلوبِنا وأرواحِنا بعضًا منَ ذلكَ المجدِ الذي أَنشدتْه الملائكة؟ هل نُشِعُّ ذلكَ السَّلامَ الْمُرادَ للبشريَّة؟ هل نَحملُ حقًّا السرَّ الذي يحمِلُ بشرى الخلاصِ السَّارَّةَ للبشر، رجالاً ونساءً، الذينَ في أعماقِ قلوبِهم يَرغبونَ في رؤيةِ يسوعَ المسيح؟

إنَّ عددَ سكَّانِ عصرِ الإمبراطوريَّةِ الرُّومانيَّةِ الأوَّلِ هو موضوعُ نقاشٍ علمي. منَ المرجَّحِ أنْ يكونَ قد وصلَ عددُ السُّكان إلى 60 أو 70 مليون. اليوم، هناكَ حوالي 50 مليون شخصًا مُشرَّدًا، رجالاً ونساءً وأولادًا، الذين، لسببٍ منَ الأسباب، قد أُجبِروا على الفرارِ منْ ديارِهم وليس لديهم أيُّ مكانٍ يَذهبونَ إليه. هؤلاءِ الأُخوةُ والأَخواتُ لنا التَّائهونَ في هذا العالم، أصبحَ عددُهم، بسببِ الحروبِ والإضطهاداتِ والمجاعات، ما يُعادِلُ تقريبًا عددَ سكَّانِ الإمبراطروريَّةِ التي عاشَ في كنفِها سيِّدُنا يسوعُ المسيح. في الواقع، منَ السُّهلِ أنْ نَغرقَ في الأَعدادِ والنِّسَبِ التي تُقدِّمُها التَّقاريرُ الكارثيَّةُ الحديثة. معَ ذلك، علينا أنْ نكونَ مُتَيَقِّظينَ على الدّوام، ونَنظرَ إلى المسيحِ لئَلاَّ تَدخل إلى قلوبِنا وعقولِنا قوى الظَّلامِ واليأسُ والقنوط. في سنة 387م، وفي خضمِّ أعمالِ الشَّغبِ الواسعةِ القاتلةِ في أنطاكية، قدَّمَ القدّيسُ يوحنَّا الذَّهبيُّ الفمّ، الذي كانَ ما زالَ كاهنًا، سلسلةً منَ الخطاباتِ إلى الجماعةِ المسيحيَّة، بدأتْ بعبارةِ "افرحوا! وأيضًا أقولُ افرحوا"!

اليوم، يَرغبُ الذَّهبيُّ الفمّ، وبإلحاح، أنْ يقولَ لنا الشَّيءَ نفسَه. افرحوا! كونوا مسيحيّين. لا تكونوا شعبًا مُصَلّيًا فقط، بل أيضًا جماعةٌ ذاتُ نيَّاتٍ حسنة. ربَّما، وبعزمٍ، يَرغبُ أنْ يُذَكِّرَنا بأنَّه "إنْ لم نجدِ المسيحَ في شحَّاذٍ على بابِ الكنيسة، فلنْ نجدَه في الكأس".

أيُّها الأخوةُ والأَخوات، أَعلمُ أنَّنا نَعيشُ في مجتمعٍ يَطرحُ أسئلةً كثيرةً حولَ عقائدِنا. هناكَ دائمًا مَنْ يسألُ عنْ أمورٍ تتعلَّقُ بإيمانِنا. لكن، في هذا الموسمِ المبارَك، لا يُمكنُنا أنْ نكونَ بعيدينَ عنِ العطيَّةِ الإلهيَّة، يسوعَ المسيح، الكلمةِ الإلهيَّةِ وحكمةِ الله، الذي أَتى إلى العالم. لهذا، لا يمكنُني إلاَّ أنْ أحثَّكم على أنْ تأخذوا في الإعتبارِ أولئكَ الأكثرَ حاجة.

ليفرحْ كلٌّ منكم، كلُّ عائلةٍ وكلُّ بيتٍ في هذا العيدِ المبارَك. لتُدرِكوا السَّلامَ والفرحَ الذي أَنشدتْه القوَّاتُ غيرُ الماديَّة في أوَّلِ ميلادٍ في بيتَ لحم.

كهديَّةٍ ميلاديَّة، أَوَدُّ أنْ أطلبَ من كلٍّ منكم صلاةً منْ أجلي ومنْ أجلِ سلامةِ أبرشيتِنا المبارَكة.

معَ بركتي الأبويَّةِ وصلاتي،

+المطران روبير ربَّاط

صدَرَ عن كرسيِنا في غرين إيكر، نيو ساوس وليز
24 كانون الأوَّل/ديسمبر 2016